﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

مِفْتَاحُ الحَمْد

مِفْتَاحُ الحَمْد

هـو مِفتـاحُ الدخـولِ فـي عَالَـمِ الثَّنـاءاتِ علـى رب الأرض والسموات، التي لا يستحقُّها إلَّا هو وحده سبحانه، فشاء اللهُ عَزَّوَجَلَّ في هذه السُّورة أنْ يُعلِّمَ عِبادَه طريقةَ خِطابهم له ومُناجَاتهم إيَّاه، فإنَّ الداعـي ينبغي لـه أولًا أنْ يحمَدَ اللهَ تعالى ويُثني عليه؛ ليكون ذلك أدعى إلى الإجابة، فبدأتْ هذه السّورة بحَمْدِ الله والثَّناءِ عليه، ومَن أحسنُ ثناءً على الله مِن الله نفسه!.

الحَمْـدُ لِلَّـهِ: خيـرُ الدُّعـاء، كُلُّهـا حـبٌّ وثَنَـاء، تمـلأُ الأرض والسَّـماء، تُرضِـي الرحمن، وتملأ الميـزان، وتُغيظ الشـيطان، بها مغفرة الذَّنبِ، ورحمة الربِّ، وتفريج الكربِ.

وقد ذَخَرَتْ سُوَرُ القرآنِ الكريم بالكثير مِن الآياتِ التي تحدثتْ عن حمْدِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فهناك خمس سور بدأت بـ«الْحَمْدُ للّهِ» وهي: [الفاتحة – الأنعام – الكهف – سبأ – فاطر] كما أن هناك ثلاث سور انتهت بـ«الْحَمْدُ للّهِ» وهي: [النمل – الصافات – الزمر]، بالإضافة إلى عشرات الآيات بين ثنايا السور تحدثتْ عن الحمْد.

ومما ينبغي للمؤمن أنْ يستحضِرَه في سَيْرِهِ إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأن يشتغلَ به اشتغالًا دائمًا، ليل نهار لا يفتر؛ هو الحَمْدُ، هذا المعنى العظيم، هذا المِفتاحُ الكبير مِن مَفاتِيحِ الفاتحة، وهذا شيءٌ ضروريٌ لِكُلِّ مؤمنٍ أنْ يفهمَه أولًا، لأن كثيرًا مِن النَّاسِ يشتغلُ بالحَمْدِ لفظًا لا عملًا، بل يشتغلُ بنقيضِه عملًا.

فهناك كثيرٌ مِنَّا يقول: الحَمْدُ لِلَّهِ! ولكن للأسَف بِلِسَانِه فقط، ومِن ذلك صَلاته فهو يقرأ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ في كل صلاة، ويَتلفَّظُ بِها عند نهاية طَعامِه، وعند حصوله على نعمة ما، وعند سؤالِه عن حالِه، إلى غير ذلك، وقد يستعمل ذلك على سبيل اللغو: يعني أنه قد يقول هذه الكلمة دون إدراك معناها، وهذا يحصل كثيرًا، ولكن هذا لا يكفي، بل لا أقول لا يكفي فقط، بل هذا فيه نوع مِن قِلَّةِ الأدَبِ مع ربِّ العالمين، وذلك إذا كان فعله وشعوره يشتغل بعكس المعنى، يعني أنه لا يحمد الله جَلَّ وَعَلَا من الناحية العملية، بل يحمده باللسان فقط! أما بالعمل بمقتضى الحمْد فلا.

فكثيرٌ مِن النَّاس يقولون نحن حامدون لله وشاكرون له، وما هم كذلك، لأنهم لم يحمدوه بإحساسهم ووجدانهم وفِعالهم، فوجبَ علينا إذن أنْ نعرفَ الحَمْدَ ونفهمَ معناه، لأنَّه صلاتنا، فصلاتُنَا حَمْد، وسورةُ الفاتحةِ اسمها الحَمْد، وهي تدورُ على

حمدِ اللهِ ربِّ العالمين، ومِن هنا أحببتُ أنْ أتحدثَ عن هذا المِفتاح الأوَّل مِن مفاتيحِ الفاتحة؛ مُتدبرًا لكتابِ الله جَلَّجَلَالُهُ أو نتعاون جميعًا على تدَبُّرِ كلامِ الله، فمَنْ تدبَّر حق التدبُّر؛ فَتَحَ اللهُ له مِن أسرارِ وكُنُوزِ الفاتحة الشيء الكثير، هذه السورة التي نقرؤها كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل، إمَّا أنَّنَا نقرؤها بأنفسنا، أو تُقرأ علينا مع الإمام، فإننا إذن نسير بها إلى الله، فالحمْدُ أدبٌ مع الله عَزَّوَجَلَّ واعتراف لله بالربوبية.

والنَّبيُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كُلما أرادَ أنْ يدعوَ ربَّه أو أنْ يخطُبَ النَّاس استفتح بالحمْد، فكان يبدأ بحمْدِ الله والثناء عليه، وفي كل عبارات الثناء على الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يوجد معنى الحمْد لله، والحمْدُ يجمع الشكر والثناء، فهي لفظة جامعة، الشكر يكون على الفِعَال، والثناء يكون على صفاتِ الجمال والكمال، فإذا أعجبتْكَ سيَّارةً جميلةً مثلًا؛ فلن تقول لها شُكرًا أيَّتُها السيَّارة، لأن طبيعة اللغة العربية تأْبَى ذلك، والعقل لا يقبلُه، والذي تقوله حينها: هو أنْ تذكر جمالها وصفاتها الجميلة، هذا يُسمَّى ثناءً، تُثني على الجمال والجلال والصفات.

أمَّا عندما يُقدّم أحدٌ لك المُساعدة، أو يُسدي إليك معروفًا، فأنت تقول له: شُكرًا، فالشكر يكون لمن صنع إليك معروفًا وقدَّم

إليك خيرًا، ولكن مَنْ لم يُقدّم لك خيرًا ولا شرًّا، وإنما أعجبك منظره وذكَرته بكلام حَسَن، فهذا يُسمَّى ثناءً.

فنحن -المسلمين- نُثني على الله جَلَّجَلَالُهُ لأنه جميل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وله صفات الجمال والجلال والكمال، فهو أهل للثناء، كما في الحديث الصحيح: «**أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ**،...»[1] الحديث، المعنى: أنه سبحانه بجماله وعظيم سلطانه وجلاله مُسْتَحِقٌّ للحَمْد، وهو للحَمْدِ أهْل، مَن عَرفَه مِن خلقِه يُثني عليه بما هو أهلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، «فيجب على كل مكلَّف أنْ يعتقد أنَّ الحَمْدَ على الإطلاق إنما هو لله وحده وأنَّ الألف واللام للاستغراق لا للعهد، فهو الذي يستحق جميع المحامد بأسرها، فنحمدُه على كل نعمةٍ وعلى كل حالٍ بمحامِده كُلِّها ما عُلِم منها وما لم يُعلَم... ثم يجب عليه أنْ يسعى في خصال الحمْد وهي التخلُّق بالأخلاق الحميدة والأفعال الجميلة»[2].

والإنسانُ مفطورٌ على أن يُثني على الشيء الجميل، وهذا هو الأصل في الإنسان وخاصة المؤمن المسلم، فإذا حمدتَ اللهَ فقد أثنيتَ عليه وشكرتَه، بما هو أهلُه ثم تذكر أنَّه خلقَك وأعطاك وأنْعَمَ

(١) مسلم.
(٢) القُرطبيُّ.

عليك مِن النِعَمِ التي لا تُعدُّ ولا تحصى، فتكون مِن الحامدين، والحمْدُ أعلى درجات العبودية؛ لأنَّه يدل على العبودية الاختيارية، وهي أرفعُ درجاتِ العبودية؛ يعني أنَّ العبدَ يكون في أفضل حال عندما يختار أنْ يحمدَ الله ويُثني عليه ويشكره، لأنَّ الحامدَ هو العابدُ، والعابدُ الحق لا يكون إلا حامدًا لله، ولهذا لا تكاد تجد دعاء مِن أدعية النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا وقرنَها بالحَمْد أو سبقَها أو لحِقَها أو ختمَها به، مِن ذلك:

◇ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفضلُ الذِّكرِ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأفضَلُ الدُّعاءِ الحَمْدُ للهِ**»[١] ومعلومٌ أنَّ الدُّعاءَ هو العبادة، فبيَّن الحديث أنَّ أفضلَ العبادةِ حمْدُ الله تعالى.

◇ عَنْ أنسِ بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن اللهَ ليَرضى عن العبد أن يأكل الأَكلة، فيَحمده عليها، أو يشرب الشَّربة، فيحمده عليها**»[٢].

◇ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: عَطَسَ رَجُلانِ عِندَ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فشَمَّتَ أحَدَهُما ولم يُشَمِّتِ الآخَرَ، فقيل له، فقال: «**هذا حَمِدَ اللهَ، وهذا لم يَحمَدِ اللهَ**»[٣].

---

(١) الترمذيُّ.

(٢) مسلم.

(٣) البخاري.

◇ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ قَالَ إذا أوى إلى فراشِه: الحمْدُ للـه الذي كفَاني وآواني، الحمْدُ لله الذي أطعمَني وسقاني، الحمْدُ لله الذي مَنَّ عليَّ وأفضَلَ، اللهمَّ إنيِّ أسـألُك بعزَّتِـك أنْ تُنَجِّيَني مِـن النَّارِ؛ فقد حمِدَ اللـهَ بجميعِ محامدِ الخَلْقِ كلِّهِم**»(١).

◇ عـن عائشـة أم المؤمنيـن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالـت: كانَ رسـولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رأى مـا يُحـبُّ قـالَ: «**الحمدُ للَّهِ الَّـذي بنِعمتِهِ تتمُّ الصَّالحاتُ**»، وإذا رأى ما يكرَهُ قالَ: «**الحمدُ للَّهِ علَى كلِّ حالٍ**»(٢).

◇ عـن أبي موسـى الأشـعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَـالَ: «**إذا مـاتَ ولَـدُ العبدِ قالَ اللَّـهُ لملائِكتِهِ: قبضتـم ولدَ عبدي؟ فيقولـونَ: نعم. فيقولُ: قبضتُم ثمرةَ فـؤادِهِ؟ فيقولونَ: نعم. فيقولُ: مـاذا قـالَ عبدي؟ فيقولـونَ: حمِـدَكَ واسـترجعَ. فيقولُ اللَّـهُ: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنَّةِ وسمُّوهُ بيتَ الحمْدِ**»(٣).

◇ عن أبـي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**ألا أدُلُّـك علـى ما هو أكثرُ من ذكـرِك اللهَ الليلَ مـع النهارِ؟ تقولُ:**

---

(١) السلسلة الصحيحة.

(٢) صحيح ابن ماجه.

(٣) صحيح الترمذي.

الحمدُ للـه عددَ ما خلـق، الحمدُ لله مِلْءَ ما خلـق، الحمدُ لله عددَ مـا في السـمواتِ وما في الأرضِ، الحمدُ للهِ عـددَ ما أحصى كتابُه، والحمـدُ للـه على مـا أحصى كتابُـه، والحمدُ للـه عدَدَ كلِّ شـيءٍ، والحمدُ لله مِلْءُ كلِّ شـيءٍ، وتسـبِّحُ اللهَ مثلهنَّ. تَعَلْمهنَّ وعَلِّمْهنَّ عقِبَك مِن بعدِك»(١).

◇ عـن أبي هريـرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دعـا رجلٌ مِنَ الأنصـارِ، مِن أَهْـلِ قباءٍ النَّبـيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال فانطلقنـا معَهُ، فلمَّا طعِـمَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغسـلَ يدَيهِ، قَالَ: «**الحمدُ للَّهِ الَّذي يطعمُ ولا يُطعَمُ، ومـنَّ علينـا فَهَدانا وأطعمنا، وسـقانا وَكُلَّ بلاءٍ حسـنٍ أبلانا الحمدُ للَّـهِ غيـرِ مودعٍ ولا مُكافأ ولا مَكْفورٍ، ولا مُسـتغنًى عنـهُ، الحمدُ للَّهِ الَّذي أطعمَنا منَ الطَّعامِ، وسـقانا منَ الشَّـرابِ، وَكَسـانا منَ العُريِ، وَهَدانا منَ الضَّلالِ، وبصَّرَنا منَ العمَى، وفضَّلَنا علَى كثيرٍ ممَّن خلقَ تفضيلًا، الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ**»(٢).

كلُّ هـذه الأحاديث والأحـوال النبويَّة الشـريفة؛ تجعلُنا دائمًا فـي صلةٍ مع الله فـي كل وقتٍ وحين، لِيُصبح الحَمْـد خُلُقًا نتخلَّقُ به في جميع أحوالنا، فالتربية على حَمْدِ الله تعالى في كل الأحوال

---

(١) صحيح الجامع.

(٢) رواه أحمد شاكر في عمدة التفسير.

والأحداث والمواقف التي تمُرُّ بنا؛ لا شك سيكون لها عظيم الأثر ولا بُد في حياتنا وسلوكنا ونظرتنا للحياة.

ومِن آثارِ التخلُّق بحَمْدِ الله تعالى:

الرضا والقناعة: فدوام حمْد الله يزرع في نفس العبد الرضا والطمأنينة وراحة البال، لأن الحامد لربه قد رضي بما آتاه الله فلا يتطلع إلى ما عند غيره، فقولُه الحمْدُ لله؛ هي تسليمُ نفسه لاختياراتِ الله له، التي هي أفضلُ وأسلمُ وأجملُ مِن اخياراتِه لنفسِه، تسليمًا بحكمتِه، وثقةً بوعدِه، وتصديقًا بشرعِه، وركونًا للُطْفِه، واطمئنانًا لرحمتِه، لئنْ ابتَليتَ فلطالما عافيتَ، ولئنْ أخذتَ لطالما أبقيتَ، ولئنْ مَنَعْتَ لطالمَا أعْطَيْتَ، فانظر لمَن هو دونك؛ لتَعرِفَ نِعَمَ الله عليك، وترضى بما قسَم لك، وتَحمَده على ما أنعَم.

الصبر عند نزول البلاء: لأنه قد ربَّى نفسَه على حمْدِ بارئها في السراء والضراء، لأن دوام الحمْد دليلٌ على قوَّةِ الإيمان، والإيمان نصفه صبر والنصف الآخر حمدٌ وشُكر، وكان جزاء الحامد الصابر أن أمر الله ملائكته ببناء بيت له في الجنَّة ولأنَّه كان كثير الحمْد في الدُّنيا سمَّاه الله له «**بيتَ الحمْد**».